الكلمة الأخيرة

محمـد الأحمـد

عبد الحي أديب

برحيل الكاتب الكبير والصديق الأقرب عبد الحي أديب تنطوي صفحة جميلة من حياتي وتنضم إلى ذاكرتي المتعبة ظلال جديدة لمبدعين كبار عرفتهم عن قرب ، إذ لطالما كنت محظوظاً منذ نعومة أظافري بلقاء قامات عالية في حقول الادب والفكر والفن .

تربيت بين قدمي جدي بدوي الجبل . كنت أنظر إلى الأعلى فتعرفت في مجلسه العامر على عمر ابو ريشة ، محمد مهدي الجواهري ، نزار قباني ، محمد عبد الوهاب ، وديع الصافي ، فيروز والرحابنة ، سعيد عقل ، عبد السلام العجيلي ، الإمام موسى الصدر ، ادونيس ، نور الهدى ، واسماء كثيرة أخرى . ويوم اخترت في مطلع الثمانينات السينما هاجساً أبدياً قادتني الاقدار إلى صداقات عديدة مع أهل المهنة أفدت منها فغدت حياتي أكثر غنى واشد جمالاً .

التقيت عبد الحي أديب للمرة الأولى في مهرجان دمشق السينمائي العام /1985/ ، تعمقت صداقتنا إلى درجة أنه باح لي بأسرار تخص عائلته ولم تمض على لقائنا الاول ساعات قليلة شعرتها سنوات عديدة لكثرة ما أحببته . كان يحدثني عن السينما ، عن أفلامه ، عن الزمن الجميل ، عن ذكرياته ، عن زوجته الحاجة بسيمة ، عن أولاده عماد وعمرو وعادل وعن الغصة التي لازمته طويلاً في ان الحظ لم يحالفه ليكون أباً لابنة جميلة كان دائم التحدث عنها . تتالت السنوات ولم ينته حديثنا الاول وفي كل مرة افترقنا فيها أحسسنا سوية ان للحديث الطويل الدائر بيننا بقية أو تتمة ، لم يكن مقدراً لنا أن نضع نقطة في أخر السطر إيذاناً ببداية جديدة او إنهاء فصل للشروع بفصل آخر .

عرفت عبد الحي أديب في كل التقلبات التي طرأت على حياتي ، شاهدني مرة منكسرا فظللني برعايته وغمرني بعاطفة أبوية عجيبة حتى انه أضطر للرقص فوق " الكنبة " مؤدياً حركات تهريجية لإسعادي وإخراجي من حالة محبطة مررت بها . ردد على مسامعي غير مرة : " كل ابتسامة مرتسمة فوق شفاه هي قبلة على جبيني " ، كان نجماً أينما حل: في افتتاحات المهرجانات والمناسبات السينمائية ، في المطاعم والمقاهي التي ارتادها ، في شوارع القاهرة الطيبة ، وفي ليلها المكتنز الف حكاية وحكاية ، مدرسة بكل معنى الكلمة ،قامة إبداعية نادرة ، طفولة لم تُخدَش وبراءة لم ينل منها التبدل بفعل جميع الاهوال التي مرت به ومر بها . احب عبد الحي اديب الحياة بطريقته الخاصة بدءاً من ملابسه التي كانت تغلب عليها الالوان الزاهية المشبعة بنهم الإقبال على الحياة مروراً بتطور فكره وانفتاحه على الموجات الحداثية التي لم تلغ يوماً ثقافته الكلاسيكية الاخاذة وانتهاءً بتوقه السرمدي لتاسيس صداقات مع شبان من عمر اولاده افرزت صراعات دائمة ونقاشات حادة صاخبة كانت تمتد حتى ساعات الفجر الاولى في مقهى " غريون" حيث كنا نلتقي لسنوات وسنوات ، ولحظة ينتهي الحديث عن شجون السينما والسياسة يعود عبد الحي اديب إلى وجدانياته ليكرر من جديد على مسامع المحيطين به مجموعة من الحكايات التي يحفظونها عن ظهر قلب: قدسية شعوره لشريكة العمر (بسيمة) ، كيف كان يجهد ليؤمن لأولاده مصاريف الدراسة الباهظة في كلية فيكتوريا، ذكرياته في دمشق وبيروت واستنبول، حكاياته مع رشدي أباظة وفريد شوقي ومحمود مرسي وفاتن حمامة وسعاد حسني ونهاد قلعي ونيازي مصطفى وكامل الزهيري وأسماء كثيرة اخرى .

قاوم عبد الحي المرض الذي أنهكه أواخر أيامه بشجاعة ورجولة نادرتين ، لم يرفع الراية البيضاء للحظة واحدة، سخر من الموت بالضحك والرغبة بالعيش والحديث عن المشاريع المستقبلية التي كان ينويها.

التقيته للمرة الأخيرة في مشفى دار الفؤاد بالقاهرة ورغم مكابرته وإيحاءاته بأنه ما زال قوياً، لاحت إشارة من عينيه أفصحت لي عما يكابده . أهداني نسخة من " البيبي دول " أحدث سيناريو له وطلب مني قراءته بسرعة لسماع ملاحظاتي عليه .

غادرت المستشفى بعد أن ضممته وقبلته كما لم أفعل من قبل وبيدي السيناريو الذي أعطاني إياه. كنت أعلم جيداً انها المرة الاخيرة التي سألتقيه فيها وان الزمن المتبقي له لن يتيح لنا الحديث بشأنه . حقاً لقد كانت الحياة أجمل بكثير بوجود عبد الحي أديب .